الغزل عند الصوفية

للاستاذ محمد منصور خضر

للكلام الموزون الملقى سيطرة كبيرة على النفوس ، تنفعل له وتتروح تحت تأثيره وتطرب له ، يحس بذلك كل ذى حس مرهف وذوق سليم ونفس فياضة بالعواطف ، فتتردد فى جنبات الفكر روح اللفظ والمعنى ، فتنبعث النفس المتثاقلة ويبتسم الوجه العبوس ، وتتفاعل موجات الفكر صاخبة مدوية ، فيتولد عن ذلك إحساس رقيق يهب الصفاء ونقاء السريرة . ويذهب بالنفس إلى عالمها السماوى الأعلى

نعم يشعر بذلك كل من سمع لفظا دقيقا رقيقا ومعنى ساميا ، ولذا نحا أدباء التصوف تلك الناحية وهى ناحية القلب وما يحسه فى أداء العبارات من رضا وشوق وصفاء ونور ! ولقد ذهب شعراء التصوف على هذا الوتر الحساس فأقبل الناس عليهم يشبعون رغبتهم ، ويحيون نفوسهم ، وقد أماتتها أمانى الحياة وآمالها ، فتراهم ملكوا زمام القيادة ، وبهرت منزلتهم السامية عامة الناس وخاصتهم ، وتألقت منزلتهم فى حب الله ورسوله من أقصر طريق ؛ حتى أصبحوا منارات هدى يهتدى بهم الضال والحائر ، إذ أن قصائدهم الفريدة الفائقة تفصح عن تبحر فى اللغة وسعة فى الملكة ، وإيضاح تام عما يجول فى الخاطر ، وإحاطة تامة فى معارج الطريق

ولشعراء التصوف طابع خاص يمتازون به فى منظومهم ، فهم زيادة عن ولعهم الشديد بالغزل الذى قلما يحيدون عنه يستعملون الرمز والتورية كثيراً ، فهم بحق ينظمون نظما دقيقا فيه عاطفة رقيقة وإن خرجوا على الأساليب المألوفة ففيه القوة والحرارة والإيمان !

ومنظوم المتصوفة فى مجموعه يرمى إلى أغراض علوية فى أساليب غزلية ليسهل قبوله ، فتنفعل له النفوس والمشاعر ، ولذا تراهم يقدمون لنا ألوانا من أذواقهم على تفاوت درجاتهم فى الطريق ، فمنهم سافر يظهر على لسانه بعض ما يجده من وجد يريد أن يبوح به فيأتى بألفاظ يوهم ظاهرها معنى غير مراد ، وهذا من الأسباب القوية التى ساعدت بعض الفقهاء على الوقوف ضدهم ، ومنهم محجب أراح نفسه وغيره ، وهذا الصنف قليل عندهم .

وأثناء عرضنا لمنظوم هؤلاء الصوفية تبدو لنا ظواهر طيبة من صادق الألفاظ والمعانى ، وترك المغالاة فى الوصف وحبكة التعبير وقوته وسهولته معاً ؛ حتى ليحار الباحث فى قوة هذا الشعر وحرارته مما يدل دلالة صادقة على تفجره من قلوب هائمة فى بحار المعانى وأنهار المبانى غير مقيدة بقيود الشعر الهزيل الكاذب الذى نراه فى العصور المختلفة . وما أحسن قول محيى الدين بن عربى :

إذا حل ذكركم خاطرى ... فرشت خدودى مكان التراب
وأقعد ذلا على بابكم ... قعود الأسارى لضرب الرقاب .

فهل تجد أيها القارئ العزيز أسهل وأصدق من هذا النظم الخارج من القلب ليعمل عمله فى القلوب الميسرة لقبول الأنوار الإلهية ؟

وشعراء التصوف ذوق خاص ، فهم يجعلون نصب أعينهم موافقة أشعارهم لروح الشرع الحكيم . ومن دقتهم فى هذا السبيل إنكارهم الخروج عن المألوف شرعا وذوقا مثل قول القائل .

أخفق الفلاسفة فى التوفيق بينهما .

ولعل هذا المنهج الذى رأيت أنفع لحياة العلم ، لأنه لا يجعل من الدين والفلسفة عدوين يحارب أحدهما الآخر . وشعاره : « يجب التصديق بالقضايا العلمية المروية عن أسلافنا ما لم يقم الدليل المادى على بطلانها - سواء بالنص العارض ، أو تحييض عدم تقبل العقل المنصف لها . » أما منهج بيكون فضلا عن عجزه وعجز أتباعه عن التوفيق بين قضايا المادة والوحى ، يضيق دائرة العلم حيث يقول : « يجب إبطال كل شئ ما لم يقم الدليل التجريبى على صحة المبطل . » وهو قانون خطأ لأن التجربة غير ميسورة فى كل وقت

وأنت ترى بعد هذا . أن « المنهج العلمى الحديث » الذى رأيته يوسع دائرة العلم ويرفع الشك عن الإنسان ، بينما ترى منهج بيكون يضيق دائرة العلم ويقف بك موقف الشاك المرتاب . وشتان ما بين المنهجين فالفرق بينهما - كما ترى - كالفرق بين من يبنى ومن يهدم

عامر مفتى راوه الجرجاوى
دبلوم معهد الدراسات العليا
وأستاذ التربية بمدرسة المعلمات الراقية بباب اللوق

تمازجت الحقائق بالمعانى فصرنا واحداً روحاً ومعنى !

وأنشد ابن عربى الشاعر :

يا من يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

فقال له بعض إخوانه : كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟ فقال مرتجلا :

يا من يرانى مجرما ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما ولا يرانى لائذا

ويدخل فى إنكارهم تحريمهم سماع قول المتنبى :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فصار العالمون مجوسا

وقوله أيضاً :

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

أو قول ابن هانئ الأندلسى :

ماشئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقد حكى أن سبب توبة أبى العتاهية عن الشعر أنه أنشد مرة :

الله بينى وبين مولانى أبدت لى الصد والملالات

فقيل له فى المنام أما وجدت من تجعل بينك وبين امرأة فى الحرام إلا الله تعالى ؟ فاستيقظ وتاب فلم ينظم بعد ذلك بيتا إلا فى الزهد والترغيب فى الطاعات !

وفى رأينا أن القصيدة التى ينظمها الصوفى تعتبر كوحدة تامة أخذ بعضها بزمام بعض يكمل آخرها أولها ، وربما تكلم فى نظمه على لسان الحق سبحانه وتعالى ، وربما تكلم على لسان رسول الله ، فيظن بعض الباحثين أن ذلك على لسانه هو فيبادر إلى الإنكار. وقد لقى شعراء التصوف فى كل عصر عنتا ومشقة فى سبيل تأويل أشعارهم على وضوحها لمن درس حياتهم بإمعان وأحكم التعبير عنها ، فطالما رموا بالكفر والزندقة ، وما يتبع ذلك من المذاهب الباطلة كالاتحاد والحلول ، وقد دافعنا عنهم دفاعاً حارا وكان بحمد الله النصر حليفنا .

ومن أنفس القصائد الغزلية تائية عمر بن الفارض رضى الله عنه وهى تزيد على سبعمائة بيت ، مطلعها :

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى وكأس محيا من عن الحسن جلت
فأرهمت صحبى أن شرب شرابهم به سرمرى فى انتشائى بنظرة
وبالحدق استغنيت عن قدحى ومن شمائلها لا من شمائل نشوتى

وقصيدة السيد إبراهيم الدسوقى صاحب المقام المشهور :

تجلى لى المحبوب فى كل وجهة فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى بكشف سرائرى فقال أتدرى من أنا ؟ قلت منيتى
خبأت له فى جنة القلب منزلا نرفع عن دعد وهند وعلوة

وقصيدة الشاعر الصوفى عبد الغنى النابلسى :

أطوف على ذاتى بكاسات جامتى وأستمع الألحان فى حان حضرتى
وأنفخ مزمارى وأصغى لصوته وأضرب دفى حين ترقص قينتى
وأنشق من روضى نسيم حقائق ويسرح طرفى فى حدائق نشأتى

وقصيدة « البردة » للامام البوصيرى وقد بدأها بالغزل :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم !

وقصيدة أمير الشعراء شوقى « نهج البردة » وقد بدأها بالغزل :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم
رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا ياساكن القاع أدركنا كن الأجم
لما رنا حدثتنى النفس قائلة ياويح جنبك بالسهم المصيب رمى !

ويدخل فى هذا السبيل قصائد أخرى قصيرة نقتطف من أزاهير روضها بعض أبيات تدل على ما لها من آثار بليغة فى طريق القوم ، فطالما يستعملونها إنشاداً فى حلقات الذكر ، إذ أنها تؤثر فى القلوب تأثيراً قويا يجعل الروح تحن إلى عالمها السماوى وتتقفى آثار من مضى من الأولياء والصالحين !

ومن هذه القصائد :

نسيم الوصل هب على الندامى فأسكرهم وما شربوا مداما
ومالت منهم الأعناق شوقا لأن قلوبهم ملئت غراما
ولما شاهدوا الساقى تجلى وأيقظ فى الدجى من كان نائما

وقصيدة الرفاعى رضى الله عنه :

إذا جن ليلى هام قلبى بذكركم أنوح كما ناح الحمام المطوق
وفوق سحاب يمطر الهم والأسى وتحتى بحار بالأسى تتدفق

وقول القائل :